

## الفصل السابع عشر

لم تجر الأمور بين خالد وأبيه على ما كانا يحبّان؛ فحياة الناس ليست طوع أيديهم يصرفونها على ما يهوون، وإنّما تعرض لها العلل والآفات، وتتحكّم فيها الحوادث والخطوب التي لا يملك الناس من أمرها شيئاً، أو لا يملكون من أمرها إلا قليلاً، وهي من أجل ذلك تدفعهم إلى مسالك لو خيّرُوا لما اندفعوا إليها، وتضطرهم إلى أمور لو استطاعوا لاجتنبوها. فلم يكن في يد علي أن تصلح تجارته، وتنمو وتغل عليه ما ينهض بحاجة أسرته الكبيرة، ولم يكن في يد خالد أن يجد من راتبه — الذي كان يرى في ذلك الوقت ضخمًا على ضآلته — ما يَمكّنه من أن يحمل عن أبيه بعض أثقاله، ثم لم يكن في يد أحد من الرجلين أن يمنع هذه الأسرة الضخمة من الحاجة إلى ما يقيم أودها من طعام، ومن الحاجة إلى ما يستر أجسامها من لباس، ومن الحاجة إلى أن تحتفظ ولو بشيء ضئيل من مكانها الاجتماعي في المدينة.

فلم يكن بُد إذاً من أن ينهض علي بهذه الحقوق كلها، وقد حاول الرجل فلم يستطع، وجدّ في إصلاح أمره فلم يجد إلى إصلاحه سبيلاً، فلجأ إلى الاستدانة، مقتصدًا فيها ما وسعه الاقتصاد، مُؤمِّلًا أن يجعل الله له فرجًا من حرج ومخرجًا من ضيق، مجتهدًا في تجارته، ولكن تجارته كانت مجتهدة هي أيضًا في أن تسلك طريقًا معاكسًا لطريق صاحبها، مجتهدًا فوق كل شيء في صلاته وعبادته وتوسله إلى الله أن يضع عنه هذا الإصر الذي يُثقله، وأن يرد إلى خير ما كان فيه من أيام السعة والرخاء، ولكن أبواب السماء كانت كأنما أغلقت من دونه، أو كأن الله يسمع دعاءه ويجيبه إلى خير مما كان يطلب؛ فقد كان يطلب دارهم ودنانير، يُؤدّي بها بعض دينه، ويشترى بها لبنه وبناته وأزواجه الغذاء والكساء والحذاء، ولكن الله كان يقبل صلواته ويسمع دعواته، ويُدخّر له بهنّ قُصُورًا في الجنة على هذه الأنهار التي يجري فيها ماء لذة للشاربين، ويجري